مفهوم العقل الإسلامي لدى محمد أركون

The concept of the Islamic mind of Muhammed Arkoun

الباحث: علامي خالد المسعود

مؤسسة الانتماء: جامعة مستغانم، إ: khaled.allami.etu@univ-mosta.dz

المشرف: العربي ميلود

مؤسسة الانتماء: جامعة مستغانم: miloudlarbi2003@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/28 تاريخ القبول: 2020/02/21 تاريخ النشر: 2020/08/13

ملخص:

يعمل محمد أركون في مشروعه لنقد العقل الإسلامي من خلال التفكيك والتأويل لآليات اشتغاله، والحفر في طبقات العقل الإسلامي للكشف عن استراتيجيته المعرفية والفقهية، وذلك بإعادة النظر في البديهيات والمسلمات التي بني عليها هذا العقل، هذا النقد سيتسم بالشمولية والعمق في التحليل بما يتجاوز كل قومية أو انغلاق عقدي أو إثني أو لغوي، لذلك يعمد محمد أركون إلى اجتراح مفهوم العقل الاستطلاعي المنبثق الذي يوظف مختلف المناهج التاريخية، الأنثروبولوجيا، النفسية، اللغوية والفلسفية المعاصرة. وهو ما يسميه بالإسلاميات التطبيقية الساعية لفهم النصوص الدينية والتحرر من السياجات الدوغمائية التي منعت العقل من ارتياد مناطق ظلت بعيدة عن الاستكناه المعرفي والفكري واقتحام مساحات ظلت محرم التفكير فيها لأزمنة عديدة.

كلمات مفتاحية: محمد أركون. الإسلاميات التطبيقية. العقل الاستطلاعي. السياج الدوغمائي.

Abstract:

Mohammed Arkoun works in his project to critique the Islamic mind through the dismantling and interpretation of its mechanisms of operation, and digging in the layers of the Islamic mind to reveal its cognitive and jurisprudential strategy, and by reviewing the axioms and the premise on which this mind was built, this criticism will be comprehensive and deep in the analysis beyond each national or Closure of the contract, ethnic or linguistic, therefore, Arkoun proposes the concept of exploratory emerging that employs different approaches historical, anthropological, psychological, linguistic and philosophical contemporary. This is what he calls applied Islamists seeking to understand religious texts and freedom from dogmatic fences, which prevented the mind from going to areas that have remained far from cognitive and intellectual subsistence and break into areas that have been forbidden to think for many times.

Keywords: Mohammed Arkoun; Applied Islam; Exploratory Mind.

المؤلف المرسل: علامي خالد المسعود، الإيميل: khaled.allami.etu@univ-mosta.dz

1. مقدمة :

لقد فكر الإنسان منذ وجوده في علاقته بالوجود نفسه و بالطبيعة والمجتمع والعالم الماورائي، فانتقل من مرحلة الأسطورة والسحر إلى النظر العقلي، لذا فالتفكير العقلاني ومنذ اللحظة اليونانية أخذ أشكال ومدلولات عدة على مر العصور ضمن مذاهب وأنساق فلسفية متعددة ومختلفة، وصولا إلى الحداثة والفلسفة المعاصرة حيث تشظي مفهوم العقل والعقلانية وسيادة التقنية والتواصل والمصلحة وهو كما يرى المفكر زكي نجيب محمود الحركة التي انتقل بها من الشاهد إلى مشهود عليه ومن دليل إلى مدلول عليه ومن مقدمة إلى نتيجة تترتب عليه ومن وسيلة إلى غاية تؤدي إليه تلك الوسيلة.[1]

نشأ في الفكر الإسلامي التفكير العقلاني مع الفرق الإسلامية وكان رائد الفكر العقلاني على حسب ما يرى مؤرخو الفكر الإسلامي شيوخ فرقة المعتزلة ،الذين فكروا في الإشكاليات التي واجهت الأمة الإسلامية في الفترة المتقدمة من صدر الإسلام كالإمامة والآيات المتشابهات ومرتكب الكبيرة تفكيرا عقلانيا لافتا على خلاف الفرق الأخرى، وجعلوا العقل سبيلا لمعرفة الله ومصدرا من مصادر التشريع الإسلامي، "وهذه الأنماط والتقاليد التي تنشأ في سياق الممارسة الاجتماعية التي تصبح بعد ترسيخها القواعد الموجهة للعقل وإن يكن بصورة مضمرة وهي التي يعمل عالم المنطق على تقنيتها ".[2] حيث تواصل الأمر كذلك مع الاشاعرة وحتى الفقهاء المسلمين الذي استندوا على الاستدلال العقلي والتوفيق بين العقل والنقل (القياس، الاستحسان ، المصالح المرسلة) وذلك في الفترة اللاحقة خاصة مع حركة الترجمة وتطور علم الكلام الإسلامي حجاجه وردوده على علم الكلام المسيحي ودخول المنطق الأرسطي إلى ساحة الثقافة العربية ونشوء الفلسفة مع الكندي و الفارابي و ابن سينا .

1- مفهوم العقل الاســــــــــلامي:

يقصد محمد أركون بالعقل الإسلامي ليس فقط العقل العربي بل كذلك العقل الأعجمي، أي كل عقل اشتغل على الظاهرة الإسلامية باللغة العربية أو غيرها، أي أنه لا يحصر العقل الإسلامي بقومية محددة ، حيث أن الكثير من رواد الفكر والفقه الإسلامي كانوا من العجم حيث يقول "فضلت استعمال مفهوم العقل الإسلامي على العقل العربي ويصعب عليه قبول ما أورده عابد الجابري لتبرير اختياره لمفهوم العقل العربي [3]، وهذا ما يجعل مشروع محمد أركون في نقد العقل الإسلامي والحفر في آليات اشتغاله يتسم بالشمولية والعمق في

التحليل بما يتجاوز كل قومية وانغلاق عقدي أو اثني أو لغوي، أي وفق منظور جامع لكل انتاجات الحضارة الإسلامية على مختلف مشاربها و اتجاهاتها.

يبرر محمد أركون اختياره لمفهوم العقل الإسلامي عوضا عن مفهوم العقل العربي في «أن العقل الإسلامي يتقيد بالوحي أو المعطى المترل .... (أي) أن دور العقل ينحصر في خدمة الوحي أي فهم وتفهيم ما ورد فيه من أحكام وتعاليم وإرشاد ثم الاستنتاج والاستنباط منه فالعقل تابع ليس متبوع اللهم إلا بالقدر الذي يسمح به اجتهاده المصيب لفهم وتفهيم الوحي"[4].

فالعقل يشتغل في إطار النص الديني المقدس دون الخروج عنه بغية الوصول لإفهام عامة الناس بكافة مستويات الفهم لديهم لأن الدين مدار حياتهم و هو مصدر الإرشادات الدنيوية والأخروية وهذا ينطبق كذلك على الديانات التوحيدية الأخرى كاليهودية والمسيحية التي تشتغل داخل النص المقدس ولا تحيد عنه، وبالتالي جعل العقل رهينة هذا النص المقدس و تكبيل قدراته في النظر والتأويل والحرية، حيث لا يتعدى دوره الشرح والتفسير "هذا المعطى وهذا الوحي النهائي والأخير يقول كل شيء عن العالم والإنسان والتاريخ والعالم الآخر والمعنى الكلي والنهائي للأشياء وكل ما سيكتشفه العقل لاحقا لن صحيحا أو صالحا مؤكدا إذا لم يكن مستندا بشكل دقيق وصحيح إلى أحد تعاليم الله أو إلى امتداداته لدى النبي (من تعاليم النبي) والمعرفة بهذا المعنى هي مجرد استنباط لغوي من النصوص أو عمل معنوي وليس عبارة عن استكشاف حر للواقع يؤدي إلى التجديد المعنوي والمفهومي في كل المجالات."[5]

أما العقل العربي فهو كل إنتاج فكري كان بهذه اللغة أيا كان ديانة صاحب هذا الفكر أو عرقه، لأن هذا العقل هو حمولة اللغة العربية التي تعبر عن هذا الفكر وتحدد رؤية ما للفكر والحياة " إنها تتأثر بتاريخ القوم أو الجماعة أو الأمة الناطقين بها ولكن التعامل بين العقل واللغة أوسع وأعمق وأكثر مرونة وتعداد وإنتاجا من العلاقات بين قوم محدود ولغة "[6].

من هنا يفضل محمد أركون مفهوم للعقل الإسلامي- والذي تدخل فيه إثنيات كثيرة- في تحليلاته ومشروعه النقدي لأن يريد "الإمساك بالظاهرة الدينية في عمومياتها الشاملة التي تتجاوز من حيث الاتساع الدائرة اللغوية والقومية الواحدة سواء كانت عربية أم تركية أم إيرانية أم غير ذلك"[7]، ومع ذلك فإن أركون لا

يرفض مفهوم العقل العربي ولا ينفي إمكانية دراسة نقدية لمجمل انتاجات العقل العربي ، يرى أن ذلك ممكنا بشرط أن " نقد العقل العربي يمكن أن يمثل مرحلة أولى من نقد العقل الإسلامي يشرط أن نتحاشى كل الأحكام التيولوجية المسبقة وبينها تلك التي تقول بأن اللغة العربية متفوقة على جميع اللغات البشرية لأنها لغة الوحي القرآني .... فهذا مزعم تيولوجي لا يثبت أمام الامتحان والتفحص الألسني والعلمي الحديث "[8]

نستنتج مما سبق أن أركون لا يولي أهمية للمحددات الاثنية وحتى الدينية لأن ذلك مهم لكل دراسة نقدية موضوعية للعقل، إنتاجات العقل العربي الفكرية مستغرقة في العقل الإسلامي، لأن مقولات العقل العربي، مفاهيمه وكلياته هي إسلامية بالأساس، حيث ينحصر دور اللغة العربية في التعبير وصقل المفاهيم، أي كوعاء حامل للفكر الإسلامي دون توجيهه، وهذا ينطبق على جميع اللغات، فأي لغة ما كانت ستقوم بالدور الذي لعبته اللغة العربية، وهو هنا يخالف محمد عابد الجابري في دور اللغة العربية في البناء النسقي للعقل.

فالعمل الذي يريد القيام به أركون في نقده للعقل الإسلامي هو الكشف عن المعوقات التي تعطل جهوده في البحث و النظر و الاجتهاد ، حيث يقوم هنا بـــــ" إعادة تقييم نقدي شامل لكل الموروث الإسلامي منذ ظهور القرآن وحتى اليوم ولكن لكي لا يخيفك المشروع سوف أقول بأني أميز بين ثلاثة أو أربع مراحل أساسية :مرحلة القرآن والتشكيل الأولي للفكر الإسلامي، مرحلة العصر الكلاسيكي أي عصر العقلانية والازدهار العلمي والحضاري، مرحلة العصر السكولاستيكي التكراري والاجتراري [9]، وهذا لا يتم إلا من خلال ممارسة الحفر والتفكيك والتأويل في طبقات العقل الإسلامي وإعادة النظر في البداهات والمسلمات التي بني عليها هذا العقل ، وهو هنا يقر بصعوبة المهمة في ظل الجو السائد حاليا في المجتمعات العربية المحافظة والمكبلة لكل جهد إبداعي.

هنا يعمد إلى مقارنة ما حدث في تاريخ الأوربي الغربي خلال القرون الوسطى من سيطرة للكنيسة على الفكر والحياة وانتشار الفكر الدوغمائي المدرسي، وبروز تيار الإصلاح الديني مع البروتستنانية التي حررت العقل وساهمت في جهود النهضة الفكرية وتيار التنوير والحداثة لاحقا، مقارنة ذلك مع المرحلة المنيرة في الفكر الإسلامي والتي بدأت مع المعتزلة مرورا بابن رشد وأبو حيان التوحيدي و ابن مسكويه وابن خلدون، حيث يقول" رحت أفكر بمشروع أكثر طموحا واتساعا مشروع يهدف إلى نقد العقل الإسلامي كله، من المعلوم

أن علم أصول الدين وعلم أصول الفقه في التراث العربي الإسلامي مرتبطان ببعضهما البعض بشكل لا ينفصم ومعلوم أيضا أن الثاني يعتمد على صلاحيات مبادئ الأول ومسلماته تركيباته العقائدية، والواقع أن في هذين العلمين الإسلاميين المحصنين ينحصر الحقل المعرفي ومجريات التقنية الخاصة بالعقل الخاضع لما يدعوه المسلمون وجميع أهل الكتاب بالتنزيل أو الوحي ونقصد هنا بالعقل العقل الديني بالطبع وبالتالي العقل الإســــــــــلامي كما العقل اليهودي أو العقل المسيحي.[10]، وهو يشير إلى العقل المسيحي أو اليهودي في كتاباته ليبين أن مشروعه النقدي يعمل على تحرير العقل من كل المحددات الدينية أو الاثنية، أي القبض على العقل وهو يشتغل تاريخيا وبكل حرية وهو ملكة تخص جميع الناس باختلاف أعراقهم و لغاتهم ، لأن يشتغل داخل ثقافة معينة، وإن ما كان يهدف إليه أركون هو "تحرير العقل الإسلامي والرجوع به عن طريق التحليل العلمي إلى أحواله الأولى أي النص القرآني حيث استطاع أن يطبق عليه أحدث المناهج الفكرية فأضاءه بشكل غير مسبوق وانكشفت عندئذ عظمة القرآن وعبقريته وتاريخيته الجزئية في آن واحد "[11]،خاصة وأن القرآن لم يحرم الإنسان من تفعيل قدراته العقلية في النظر والتحليل والتدبر والاستنتاج، فهو حافل بالآيات التي تدعو إلى ذلك ("أفلا يتدبرون " " أفلا يعقلون " أفلا يبصرون " " إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون")[12]. من هذا المنطلق نجد أركون يؤكد على "الجدلية القائمة بين دراسة موضوع الإسلام ومشروع نقد العقل الإسلامي...دراسة نقدية تفكيكية تروم أولا تحليل أنظمة المعرفة ونقد أسس التفكير وآلياته وكشف عن أدوات إنتاج الدلالة وقواعد تشكيل الخطاب." [13]

2- مبادئ العقل الاســــــــــلامي

يرى محمد أركون أن العقل الإسلامي بدأت عملية تأسيسه من خلال رسالة الشافعي باعتباره عقلا تأصيليا، فالشافعي في وضعه لأصول الفقه الإسلامي التي تعتمد على القرآن والسنة النبوية وإجماع الأئمة (هذه الأخيرة لم تكن محل إجماع الأئمة مثل ابن حزم)قد وضع أسس عمل العقل الإسلامي وبشكل نهائي لا يمكن لمن بعده أن يخرج عن إطارها أسس تعتمد القياس والاستقراء والاستنباط المقيد، أنها "عملية التأصيل ونقصد به البحث عن أقوم الطرق الاستدلالية وأصح العوامل التحليلية والإستنباطية للربط بين الأحكام الشرعية والأصول التي تتفرع عنها أو لتبرير ما يجب الإيمان به ويستقيم استنادا إلى فهم صحيح للنصوص

الأولى المؤسسة للأصول التي لا أصل قبلها ولا بعدها "[14]، وهذا ما يجعل العقل الإسلامي عاطلا عن الاجتهاد، بل عقل يجتر المعارف السابقة ويعيد إنتاج نفسه حيث لا يخرج عن السياقات الدوغمائية التي حددت مجال اشتغاله مسبقا، أي "عقل خادم للوحي ولا يجرؤا أبدا على مبادرة السؤال أو تأويل لا يسمح به الوحي المحيط بكل شيء"[15].

يعمد أركون إلى دراسة رسالة الشافعي دراسة معمقة لموضوعاتها وآليات اشتغالها وتشمل كذلك الظروف التاريخية التي كتبت فيها، حيث " يكفي أن نلقي نظرة على عناوين الفصول المتضمنة في الفهرس لكي نكتشف أنها تعالج جميعها موضوعا أساسيا ومركزيا واحدا هو أسس السيادة العليا أو المشروعية العليا في الإسلام .....(حيث) تصبح بواسطتها حقيقة ما أو حكم قانوني ما ليس فقط ملزما أو إجباريا للبشر وإنما لا غنى عنه من أجل السير على طريق الهدى والنجاة (الشريعة)"[16].

الشريعة وفق هذا التحليل الأركوني وإن كانت تعود في أحكامها إلى النص القرآني أو الحديث النبوي، أحكام مستنبطة في الأخير من طرف عقل بشري يخضع في ذلك إلى الظروف التاريخية والسياسية والبيئية والثقافية المحيطة به، وهذه الشريعة هي ما يؤسس للهوية التي يظل العقل الإسلامي محصورا في إطارها لا يستطيع الفكاك منها وبالتالي لا يستطيع الاشتغال على مساحات ظلت داخل ما يسميه اللامفكر فيه أو الممنوع التفكير فيه، لأنه عقل يخشى النقد والتمحيص لأنه قد تم توجيهه مسبقا وتم وسمه بالمطلقية، وقد تم تجاهل نسبيته وتاريخيته. بالتالي حريته في الاشتغال والبحث واقتصاره على النصوص الجاهزة ، لقد بات "ينمو ويترعرع داخل إطار مجموعة نصية (**Corps pus**) ناجزة ومغلقة على ذاتها نقصد بذلك القرآن والحديث وهو موجه نحو القبض على المشروعية العليا المطلقة "[17]، أي عقل يشتغل داخل ما يسميه أركون السياجات الدوغمائية التي تكبل العقل وتمنعه من الاجتهاد، التأويل، النقد والإبداع، وتجعله بالتالي منغلقا على نفسه لا يخرج عن إطار ما يسميه الهوية أو المقدس، هذه السياجات تشجع العقل على الاجترار والمعرفة الجاهزة التي يسمح بها النص الديني، وهو بالتالي ما يؤسس من جهة أخرى لمناطق ومساحات الممنوع التفكير فيها و آلية اللامفكر فيه في العقل الإسلامي ولفترة زمنية طويلة . أي منذ المرحلة التنوير التي شهدها العقل الإسلامي في القرون الأولى.

يدعو أركون إلى اعتماد المناهج العلمية المعاصرة في نقد العقل الإسلامي وهذه المناهج قائمة على مقاربات متعددة تراعي الجوانب التاريخية والنفسية والاجتماعية والأنثروبولوجيا واللغوية للوعي الإنساني "إن الإنسان لا تحركه فقط الحوافز المادية والاقتصادية وإنما تسيره أيضا الصور الخيالية والأفلام الوردية فكثيرا ما يتهيج الناس وتخرج الجماهير إلى الشارع لمجرد أن شخصا قد ضرب على وتر المخيال الجماعي....والمخيال الإسلامي الذي حركه الخميني بشكل هائل هو من هذا النوع ولهذا فللمخيال تاريخ يضرب بجذوره في أعماق التاريخ الإسلامي"[18].

و يؤكد أركون هنا يلتقي في تأكيده على أهمية المخيال مع رواد أهم النظريات المعاصرة في علم الاجتماع والانتروبولوجيا «أمثال "بورديو" وجورج بالاندي وكاستر ياديس وجورج دوبي اهتموا كثيرا بالعالم الرمزي ودوره في بلورة الوعي الجماعي وتحريك المسار التاريخي "فالبنية الفوقية" لم تعد نتيجة ميكانيكية "للبنية التحتية" بل أصبحت تمتلك استقلالية نسبية بل وأصبحت أحيانا تشكل قوة مادية ودافعة لمختلف الأحداث التاريخية وفي هذا السياق – والقول لأركون – أن " العقل هو ملكة من جملة ملكات أخرى يستخدمها الفكر"[19]

يرى محمد أركون أن مفهوم العقل يشمل كذلك و آليات اشتغاله تشمل كذلك ملكات الذاكرة والخيال وفي هذا الصدد يقول أركون " فالعقل بحاجة إلى الذاكرة كما أنه بحاجة إلى المخيال ولا يستطيع الانفصال عنه أو عن التصورات التي يمكن للخيال أن يقدمها للعقل من أجل تقوية عمله وترطيب أجوائه إذن يوجد أمامنا في الوقت ذاته مجال مفتوح لدراسته بنية الروح البشرية وبطريقة نفسانية أي دراسة اشتغال الروح البشرية وآلياتها في اللحظة التي ينتج فيها المبدع أعماله سواء أكان هذا المبدع فيلسوفا أم أدبيا أم فنانا [20]، هنا يجب أن نفرق بين مفهوم المخيال والخيال "وإن لكانتا تنتميان إلى نفس الجذر اللغوي فالمخيال **Imaginaire** يتشكل تاريخيا في الذاكرة الجماعية أو في الذهن ويمكن استغلاله سياسيا وإيديولوجيا في اللحظات التاريخية العصيبة فهو يضرب بجذوره في أعماق اللاوعي عبر تشكله خلال مختلف المراحل التاريخية ،هكذا نتحدث مثلا عن مخيال إسلامي ضد الغرب أو مخيال غربي ضد الإسلام [21] .

يستند محمد أركون في تحديده لمفهوم المخيال لدى فرويد رائد مدرسة التحليل من خلال مفهوم اللاوعي لديه الذي يؤطر الكثير من أشكال الوعي الجمعي والسلوكات البشرية، ويشير هنا إلى استغلال الحركات الإسلامية السياسية لهذا المعطى في السيطرة على السلوك الجمعي للجماهير، "ومن ثم نرى أركون يؤكد على ضرورة طرح الإشكالية النفسية واللغوية والأنثرويولوجية الخاصة بالمخيال الإسلامي كما تبلوره الحركات الأصولية التي شكلت خطاباتها المتراكمة طبقات هائلة وجد متماسكة لا سبيل إلى تفكيكها والحفر في أعماقها إلا بالتسلح بالأدوات المعرفية والمنهجية التي تمدنا بها العلوم الإنسانية المعاصرة"[22] .فتاريخية التاريخ الإسلامي لدى أركون هي التي دفعته إلى الاهتمام بدور المخيال في الآليات اشتغال العقل الإسلامي وفي دائرة الثقافة الإسلامية، وفصله عن الجانب الأسطوري في هذه الثقافة الذي يقدس النص و يجعل من العقل تابعا له متعاليا عن التاريخ و عن السياقات الانتروبولوجية والنفسية والأيديولوجية التي تنتجه .

3- نقد العقل الكلاسيكي:

يعتبر محمد أركون العقل الكلاسيكي هو ذلك العقل الفقهي الذي أسس له الشافعي، من خلال رسالته التي وضعت أركان أصول الفقه، لذلك يعمد إلى تفكيك هذا العقل من خلال نقد آليات اشتغاله، اشتغال هذا العقل السكولائي الذي عمل على ترسيخ فكرة "السيادة العليا "ووضع سياجات دوغمائية تمنع من التفكير والمحرم التفكير فيه، وتبرير الوضع القائم، مما ساهم في الاستلاب الفردي والجماعي، لقد شهد العصر الإسلامي ومنذ القرن الخامس هجري تضييقا على العقل في ممارسة النقد والاجتهاد والتفكير.

بدأ ذلك عندما أصبح هذا العقل لاهوتيا لا يضع الحدود بين ما هو ديني وما هو قانوني أي تشريعي وسياسي، وعوضا أن يكون الاختلاف بين المذاهب الفقهية مصدر إغناء وإثراء للعقلية الإسلامية، كان مصدر خلاف وصراع، بل وصل الأمر إلى تكفير الطرف الآخر، وفي الأخير يدعى كل طرف أحقيته بامتلاك الحقيقة، وطريق هو فقط سبيل النجاة والفوز في الآخرة، ذلك أن "المطالبة بعقل أبدي خالد منسجم تماما بشكل مسبق من تعاليم الوحي كانت دائما موجودة ليس فقط في مختلف المدارس الفكرية في الإسلام وإنما أيضا في اليهودية والمسيحية كانت هذه المطالبة تنص على أن الإيمان بالوحي يقوي العقل البشري ويهديه ويضيء له الطريق هذا العقل إذا ما ترك لوحده فإنه سوف يضل[3] .

النتيجة عقل تكراري اجتراري تؤطره خلفيات سياسية و أيديولوجية لا يستطيع سوى إعادة إنتاج نفسه، والتاريخ الإسلامي في هذه الفترة حافل بالأحداث التي تؤكد ذلك كما حدث للمعتزلة مع الخليفة العباسي المتوكل، أي تلك المواجهة التي كانت بين ما يراه محمد أركون العقل التنويري والعقل الأرثوذكسي، وانتصار الأخير في النهاية، ومنذ تلك اللحظة غدا العقل الإسلامي، عقلا مقدسا يستند إلى النص والوحي كمرجعية وحيدة تضمن للعقل سداده وقوته، وبذلك يخرج هذا العقل عن التاريخ واشتراطاته، وتنسحب عليه بالتالي قداسة النص الديني، أي يصبح هو نفسه مقدسا ويتعالى عن النقد والتفكيك، وهذا ما جعل هذا العقل الإسلامي يتحول من عقل متنور ومبدع ومنفتح على كل الاختلافات والاجتهادات إلى عقل منكفئ على نفسه منغلق ضمن مبادئ ومرجعيات اتجاه مذهبي فقهي معين، ويقصي في الوقت ذاته أي اتجاه آخر كان علميا أو فلسفيا ، بل وحتى من المذاهب الفقهية الأخرى.

من هنا يذهب محمد أركون إلى تبني أحدث المناهج العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في ممارسة الحفر والتفكيك والنقد على هذا العقل "نطبق على دراسة الإسلام المنهجيات والإشكاليات الجديدة نقصد بذلك تطبيق المنهجيات والأفاق الواسعة للبحث في تاريخية وألسنية وسميائية دلالية وأنثرويولوجية فلسفية ثم ينبغي عن الشروط الاجتماعية التي تتحكم بإنتاج العقول وإعادة إنتاجها كل ذلك بغية معالجة نواقض تاريخ الأفكار الخطي المجرد ومخاطره[23]، ويعود هنا محمد أركون إلى تلك المرحلة التاريخية من الحضارة الإسلامية حيث شهدت ذلك اللقاء الفكري بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني من خلال حركة الترجمة والتي ازدهرت خاصة في عهد الخليفة المأمون، والتي وضعت في يدي المفكرين المسلمين النصوص الكبرى المؤسسة للفكر اليوناني العقلاني، ترافق ذلك خاصة مع نهضة فكرية واقتصادية في عاصمتي الحاضرة الإسلامية بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب، برز من خلالها مفكرين عقلانيين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والتوحيدي وابن مسكويه، وقد واجهوا تنافسا بل صراع ومن الكندي مع الاتجاه الفقهي الديني ، أو ما يسميه أركون العقل التكراري الذي يكتفي بكتب الحديث والأصول وكتب التفسير. ولعل نكبة ابن رشد وصراعه المرير مع الفقهاء لخير دليل على ذلك، لقد كان ذلك بمثابة النكسة التي أصابت العقل الإسلامي العقلاني، بعد مرحلة تميزت بالإبداع والنقاشات والمناظرات العلمية والانفتاح على الثقافات الأخرى، لقد سيطر العقل

الفقهي التكراري في النهاية على الحياة الفكرية في الحضارة الإسلامية ومنذ القرن الخامس عشر عقل يحارب كل حرية وإبداع عقلي منغلق على ذاته وعلى تراثه يعيد إنتاج نفسه،" وبالتالي فلا عجب في أننا نتخبط اليوم في ظلام بهيم أو عجز رهيب فنحن مضطرون للاشتغال على جهتين دفعة واحدة جبهة إحياء الصلة بالتراث الفلسفي العقلاني.... وجهة استدراك التأخر المريع بالقياس إلى الحضارة الأوربية (مسافة التفاوت التاريخي تتراوح بين ثلاثة مائة وأربعمائة سنة"[24].

من هنا يذهب محمد أركون إلى دارسة العقل الإسلامي الكلاسيكي أو الفقهي دارسة تحليلية تركز على تاريخيته، حيث يقول "ولهذا السبب تحدثت عن تاريخية *L'historicité* de la raison أقصد بالطابع المتغير والمتحول للعقل وبالتالي المتغير للعقلانية المنتجة عن طريق هذا العقل هذا هو في نهاية المطاف نقدي للعقل الإسلامي[25]، فمفهوم اركون للعقل هو تلك الملكة الغير متعالية على التاريخ واشتراطاته والغير مطلقة حيث لا تستند إلى أية مرجعية مقدسة ، فالعقل التاريخي لا يشتغل تحت غطاء المطلق والثابت بل النسبي و المتغير، بل، آليات خاضعة للتفكيك والنقد والحفر لأن العقل في النهاية ظاهرة بشرية نسبية لا تخرج عن نطاق الظروف الثقافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية لمرحلة ما من مراحل تطور العقل،"" فالعقل ليس شيئا مجردا قابعا في الهواء وإنما هو شيء محسوس ومؤطر بشكل جيد. العقل ليس جوهرا يخرج عن كل تاريخياته وكل مشروطيته فللعقل تاريخه أيضا وكل واحد من هذه العقول المذكورة مرتبط بمرحلة معينة من مراحل التاريخ بكل معطياتها وأدواتها، إنه مرتبط بالبيئة والمجتمع والحالة التطورية للأنظمة الثقافية المعرفية السائدة في زمن كل مفكر ... فالعقل الإسلامي(لا) يقبع خارج الزمان والمكان وإنما هو شيء مرتبط بحيثيات وظروف محددة تماما [26]، وهو ما يؤكده الجابري " أي ارتباطه بالثقافة التي يتحرك داخلها الشيء الذي ينزع عنه الصيغة الاطلاقية"[27].

أي أن أركون يؤكد أن لكل مرحلة تاريخية معينة ظروف واشتراطات تؤثر في العقل الإسلامي وفي المفكرين و بالتالي في إنتاجهم الفكري، فلكل مرحلة تاريخية عقلها الخاص، يخضع للظروف والبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية السائدة، فضلا عن الصراعات الأيديولوجية والفكرية، وهذا ما يسمه أركون بأنسنة العقل، يعني عدم التعامل مع "العقل كأيقونة مقدسة أو هوية ثابتة .فيما هو مصطلح أو مفهوم أو نظام أو معيار ، يجري

اختراعه أو تركيبه أو بنائه أو الاتفاق بشأنه، بقدر ما هو سياق نصوصي أو تشكيل خطابي أو ترتيب لغوي "[28].وهذا ما يسمح بالتعامل مع العقل الإسلامي بشكل حر من خلال نقد مبادئه الماورائية المقدسة والغيبية والنصوص المقدسة المؤسسة للرؤى التي سيطرت طويلا على ساحة الثقافة الإسلامية، وهذا ما يسميه أركون بالعقل الاستطلاعي التي قدمه كبديل في مشروعه الفكري للعقل الفقهي المنغلق على ذاته مقصيا كل فكر مختلف، لا يؤمن بالتعايش بين مختلف الثقافات والأجناس.

4-العقل الاستطلاعي المستقبلي الاستكشافي:

العقل الاستطلاعي هو عقل المستقبل، الذي يقطع مع كل العقول الكلاسيكية السابقة بأشكالها الفقهية واللاهوتية الأصولية والدينية التي تتموقع داخل سياجات دوغمائية شمولية دينية كانت (إسلامية، مسيحية أو يهودية) أو أيديولوجية (علمانية أو لبرالية أو يسارية)، إنه عقل تطلعي حداثي، أي ينطلق من منجزات الحداثة الغربية في مناهجها العلمية وتصوراتها العقلانية ورؤاها المنفتحة على التأويل، الحفر والتفكيك منطلقا،

أركون يعمد إلى توظيف مصطلح العقل الاستكشافي أو الاستطلاعي الحر عوضا عن عقل ما بعد الحداثة، حيث يقول في هذا الصدد أن: " ضمن هذا المنظور الموسع باستمرار نجد أن التحدث عما بعد الحداثة لم يعد كافيا ولذا فإني أفضل عليه مصطلح " العقل الجديد المنبثق الصاعد "ولحسن الحظ فإن هذا المصطلح أي مصطلح ما بعد الحداثة مر بسرعة و لم يعد مهيمنا الآن وطاغيا كما وصل لبضع سنوات في السابق... لأن مصطلح ما بعد الحداثة يسجننا داخل مسار واحد للفكر أو للعقل وهو المسار الروبي أو الغربي.... ولهذا السبب فإني لم أذعن للموضة العابرة و لم أعتمد مصطلح ما بعد الحداثة وإنما اخترعت مكانه مصطلحا جديدا وهو العقل الجديد المنبثق الصاعد. [29]

فالحداثة خطاب إنساني بالدرجة الأولى ولا تختص بعرق معين، وهنا يعود إلى اللحظة الحداثية المبكرة والتدشينية في الفكر الإسلامي الإنساني مع ابن مسكويه والجاحظ والتوحيدي وابن رشد، والذين تمكنوا من تأسيس التفكير التنويري الحداثي من خلال صهرهم مختلف الاختلافات والثقافات في عصرهم في نطاق ايبستمي التفكير الإسلامي. ورغم أن هذه الموجة لم تستمر نظرا لانتصار الاتجاه الفقهي المتزمت على الاتجاه العقلاني الحر، فن اللحظة الأوربية أعادت إحياء هذه اللحظة الإنسانية والحداثية، وهو ما يدعونا محمد أركون للاستفادة

منها، ويرى أركون "أن ساحة الفكر الإسلامي ملائمة جدا لكي نطبق عليها منهجيات العقل الجديد الذي يريد أن ينبثق ولكي نعرف مدى مصداقيته هذا العقل من خلال تطبيقه على تراث آخر غير التراث الأروبي. إن العقل الذي نحلم بظهوره هو عقل تعددي متعدد الأقطاب متحرك، مقارن، انتهاكي، ثوري، تفكيكي، تركيبي، تأملي ذو خيال واسع، شمولي إنه يهدف إلى مصاحبة أخطار العولمة ووعودها في كل السياقات الثقافية الحية حاليا (أي في كل الثقافات البشرية المعاصرة) [30]

العقل الاستطلاعي هو عقل منبثق، يستقرئ ويستكشف الذات الإسلامية من خلال الغور في المساحات المسكوت عنها والمناطق المحرمة حفرا وتفكيكا ليترع عنها هالة التقديس والحجب، التي تضمن للعقل الكلاسيكي السلطة و المشروعية والتأثير المخدر في المخيال الجماعي، وبالتالي ترسيخ الجمود والإقصاء والتعصب الفكري الذي ميز الثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس هجري، وهو في ذلك يعمل ناقدا في الاتجاهين، للذات اللاسامية من جهة للذات والغربية من جهة أخرى معتمدًا في ذلك التعدد والتنوع والثراء المنهجي والمعرفي الذي توفره له المناهج الألسنية والانثروبولوجية والنفسية والفلسفية المعاصرة، فالفكر الاستطلاعي المستقبلي المنبثق المستقبلي الحر يمارس النقد المزدوج للعقل اللاهوتي الإسلامي وللعقل الحداثي والاستشراقي الغربي ويهدف إلى تفكيك كل السياجات الدوغمائية التي تكبل العقل و تمنعه من الاشتغال بحرية، إنه "يكافح على جميع الجبهات وإنه لا ينحاز للغرب أو الشرق.... بل انه ينتمي إلى مذهب الاقتحام الفلسفي المنهجي البناء هذا المذهب الذي يشك في كل ما ينطق به العقل ويحاول تأسيسه كمذهب لا مذهب سواه أو بعده يفرضه الإنسان بالقوة علة الإنسان[31].

العقل في منظور محمد أركون ظاهرة إنسانية لا تنحاز إلى جهة جغرافية كالغرب أو للشرق ولا ينتمي طائفة دينية أو عرقية، بل يعمل من خلال إستراتيجية الشك المنهجي (الغزالي وديكارت)في كل المسلمات والمقدسات المبادئ القبلية والأفكار الشمولية والأحكام الاطلاقية التي عملت على تحنيط العقل كصنم غير قابل للنقد والتفكيك ، رسخت ثقافة التقديس الممنوع التفكير فيه

أركون وهو يقوم بخلع القداسة على النصوص المؤسسة للتراث الإسلامي تلك النصوص التي تعطي مصداقية للسلطة القائمة وتبرير سلوكها، يخلع ذلك و بجرأة في طرح الأسئلة و التحليل والنقد " يتحسر وعلى التقليد

الإنساني الوسيط التي كانت تسود فيه حرية التفكير ويذهب إلى إعادة الاعتبار لبعض المواقف التراثية كنظرية القرآن الكريم لدى المعتزلة"[32]، و يذهب إلى أن التراث الإسلامي المستنير قد شهد علمانية أي الفصل بين ما هو روحي وما هو زمني ، أن السلطة الدينية والزمنية كانت ممثلة في الخليفة وليس الإمام، وذلك منذ بواكيره الأولى، إلى عصر النبوة ودولة المدينة "حيث يلتبس الديني بالسياسي. ويحلل المثلث الأنثروبولوجي (العقل – المجتمع – السلطة/السيادة العليا) كما صاغه أركون، هذه العلاقة بكيفية واضحة....وأنه لفهم هذه العلاقة جيدًا – يؤكد أركون – يجب إدخال العامل التاريخي في الحسبان، والعمل على توضيح الفرق بين الإمام والخليفة والسلطان، وكيف أن مسألة الخلافة أو السلطة في الإسلام كانت دائمًا تحل بالوسائل الدموية لا بالطرق المشروعة، لذا يجب تجاوز الفهم العامي لعلاقة الدين بالسياسة باعتبارهما إطاران مختلفان، والدعوة إلى تحليل تاريخي يقول بوجود علمنة في الإسلام من دون القفز على الدين"[33].

العقل الذي يهدف إليه أركون هو العقل الاستكشافي الذي يسعى للبحث عن الحقيقة من خلال التحليل، النقد والتمحيص، واستغلال مختلف المناهج والتخصصات خاصة في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، للتخلص من الرؤية العقلانية الأحادية للانخراط في عقلانية قائمة على اختلاف الرؤى والأفكار، أي فك أسر العقل الإسلامي سجين مختلف السياجات الدوغمائية المسلمات الغير قابلة للنقاش، لينخرط في حركية الفكر العالمي الحر. التي دشنا عصر التنوير الأوروبي، أي إحداث قطيعة مع العقل الكلاسيكي الديني والدوغمائي. "فالعقل الاستطلاعي المستقبلي الذي أتبناه محكوم بالعمل في ظل التيه والتشرد والتردد والاشتباه المستمر بمواقفه وإنجازاته فإن واجب عليه توضيح كل مسلماته الضمنية لكي يخضعها للنقاش[34]، وهو ما يُمكن العقل من التحرر من القيود الاستمولوجية للعقل الدوغمائي من خلال الكشف عن الظروف التاريخية المحيطة بالحقيقة التي يدعي هذا العقل امتلاكها واستثمار منجزات فلسفة اللغة المعاصرة خاصة تقنيات التأويل للبحث عن المعاني الثاوية خلف حجب السلطة وقداسة النص، فالعقل الاستطلاعي يعتمد" نظرية التنازع بين التأويلات **conflits d'interprétation** بدلا من الدفاع عن نظرية واحدة في التأويل والاستمرار فيها[35]، لأركون يرمي إلى إحداث ثورة في النقد الموجه للتراث الإسلامي من إحداث رؤية جديدة متحررة من كل القيود الإيديولوجية واللغوية والدينية وهذا ما يؤكده في قوله "إن خياري الاستراتيجي الأول يتمثل في قلب الساحة

الدينية بالصيغة الموجودة عليها حاليا.... ولكن عملية القلب أو الانقلاب التي أقوم تشمل أيضا العلوم العلوم الاجتماعية الوضعية التي تفرض تقسيمات أو تأويلات إختزالية للظاهرة الدينية.... وينبغي على هذا الانقلاب المعرفي أن يصل إلى ممارسة اللاهوتيين كما إلى ممارسات فلاسفة الدين لكي يؤثر عليهم أيضا [36].

خاتمة:

يرى محمد أركون أنه و لأحياء علوم المسلمين وإحداث نهضة جدية في الفكر الإسلامي يجب أحداث قطيعة مع الأطروحات الكلاسيكية للعقل الإسلامي التي تضع سياجات دوغمائية وتضفي هالة من التقديس على النص وعلى العقل –نتاج هذا النص – نفسه ،و تتعالى على التاريخ و الواقع ، أسسها العقل الفقهي الذي يسعي لتبرير الواقع القائم بل و الإبقاء عليه للحفاظ على منافع أيديولوجية واجتماعية، لذلك يعمد إلى اجتراح مفهوم العقل الاستطلاعي المنبثق الذي يوظف مختلف المناهج التاريخية و الانتربولوجية والنفسية واللغوية والفلسفية المعاصرة كالحفر والتفكيك، ما يسميه بالإسلاميات التطبيقية لفهم النصوص الدينية و التحرر من القداسة التي حرمت العقل من ارتياد مناطق ظلت بعيدة عن الاستكناه المعرفي والفكري واقتحام مساحات ظلت محرم التفكير فيها.

الإحالات والهوامش:

[1]–– زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، دار الشروق القاهرة ط 9، ص 310.

[2]– النجار عبد المجيد – خلافة الانسان بين الوحي والعقل – دار العرب الاسلامي بيروت – ط 3 – ص37.

[3]– محمد أركون – أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟: من فيصل التفرقة إلى فصل المقال ت : هاشم صالح – دار الساقي بيروت لبنان – ط 2 – 1996 – ص XIV

[4]–المرجع السابق – صص:XIIII–VIV

[5]– محمد أركون – الفكر الاسلامي نقد واجتهاد – ت: هاشم صالح – دار الساقي بيرت لبنان – ط 6 – 2012 ص 13.

[6]– محمد أركون – أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ : من فيصل التفرقة إلى فيصل المقال – مصدر سابق – صXIV

[7]– المصدر نفسه – صXIV

[8]–اركون محمد : الاسلام والحداثة ، كيف نتحدث عن الاسلام اليوم ، ضمن كتاب :الحداثة في المجتمع العربي القيم ،الفكر ، الفن ، بدايات ، دمشق ، سوريا ، ب ط ، 2008، ص40

[9]– محمد أركون – قضايا في نقد العقل الديني – كيف نفهم الاسلام اليوم؟ هاشم صالح – دار الطليعة للنشر والتوزيع بيروت – د ط – ص 283

[10]– محمد أركون – نحو نقد العقل الاسلامي – ت هاشم صالح – دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ط1 – 2009 – ص 74.

[11]–) محمد أركون – تحريم الوعي الاسلامي نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة – ت: هاشم صالح – دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت لبنان – ط1 – 2011 – ص 15

[12]–قوله تعالى: (**أفلا يتدبرون** القرآن أم على قلوب أقفالها). محمد:24، وقوله تعالى (**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**) (الرعد:3) وقوله كذلك (**أفلا يبصرون**) ((السجدة:27).

[13]– على حرب – نقد النص والحقيقة – المركز الثقافي العربي – د ط – 1993 – ص 61.

[14]– محمد أركون – الفكر الأصولي واستحالة التأصيل – ت: هاشم صالح – دار الساقي بيروت لبنان – ط 2 – 2002 ص 7.

[15]–محمد أركون – أين هو الفكر الاسلامي المعاصر؟ – ت: هاشم صالح – دار الساقي بيروت لبنان – ط 1 – 1955 ص 2.

[16]– محمد أركون – تاريخية الفكر العربي الاسلامي – مرجع سابق ذكره – ص 68

[17]– محمد أركون – تاريخية الفكر الإسلامي – ت: هاشم صالح – المركز الثقافي العربي – لبنان بيروت – ط 3 – 1998 – ص69

[18]– محمد الشبة: مفهوم المخيال عند محمد أركون، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط 1 ،2014، ص 30.

[19]– محمد الشبة: مرجع سابق ذكره – ص 32 – 33.

[20]– محمد أركون: الفكر الاسلامي نقد واجتهاد – ت: هاشم صالح – دار الساقي – ط 6 – 2012 – ص 232

[21]– محمد الشبه: مرجع سابق ذكره، ص 29.

[22]– محمد الشبه: المرجع نفسه، ص .31

[23]– محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الاسلامي، ت: هاشم صالح، مركز الأسماء القوي، بيروت، ط 3، 1998، ص 66

[24]– محمد أركون: نقد العقل الديني – مرجع سابق ذكره – ص288.

[25]– محمد أركون: الفكر الاسلامي نقد واجتهاد – مرجع سابق ص 234.

[26]– محمد أركون: المرجع نفسه، ص 233.

[27]– محمد عابد الجابري: العقل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت لبنان – ط 5 – 1996 – ص 26

[28]– علي حرب: أزمنة الحداثة الفائقة، الإصلاح، الارهاب، الشراكة، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء المغرب نط 1، 2005 – ص 134.

[29]– محمد أركون: نحو نقد العقل الاسلامي – مرجع سابق ذكره – ص 33

[30]– محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل – مرجع سابق ذكره – ص 328 – 329

[31]– محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني – مرجع سابق – ص 9

[32]– ولد أباه السيد: أعلام الفكر العربي – الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت لبنان – ط 1 – 2010 – ص 143

[33]–عبدالمجيد خليقي: قراءة النص الديني عند المفكر الراحل محمد أركون:http://maaber.50megs.com/issue_july13/spotlights3.htm

[34]– محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل –مرجع سابق ذكره – ص.92

[35]– محمد أركون: المرجع نفسه، ص 14.

[36]– محمد أركون: المرجع نفسه ص .92